

## العائلة، عاداتها وتقاليدها بين الماضي والحاضر : الظاهرة الإحتفالية بالأعياد، نموذجاً

محمد سعيدي\*

دراسة أي تركيبة اجتماعية لا تتحقق بمعزل عن دراسة التركيبة الشاملة للمجتمع الذي تنتمي إليه، كما أن البحث في الخصوصيات الاجتماعية والثقافية لهذه التركيبة لا يتم أيضاً دون معرفة عناصره البنيوية الصغرى المكونة لها. إن التركيبات الاجتماعية عديدة و متنوعة ومتفاوتة الدرجة والمستوى في علاقاتها بالمجتمع ككل، غير أن العائلة (الأسرة) تعتبر من أهم هذه التركيبات و التي في اعتقادنا - على الأقل - تشكل المنبع لكثير من هذه التركيبات (المدرسة - المؤسسة...)، وذلك لطابعها المميز بشريا، ثقافيا، اجتماعيا، بيولوجيا... و لدورها الأساسي والحساس في تحريك المجتمع و تغيير اتجاهه. إن العائلة بكل ما تحمله من دلالات مختلفة هي الخلية القاعدية و النواة المنتجة للمجتمع و لكيانه الروحي و المادي. سأحاول في هذه الدراسة أن أقف بالعائلة على ضوء ما تفرزه، حركيتها ضمن الفضاء الاجتماعي والثقافي للعادات والتقاليد المحلية ماضيا و حاضرا.

\* مدرس بجامعة تلمسان/باحث بمركز البحث في الإنثروبولوجية (CRASC).

لقد اخترت هذه الوقفة و هذا الإطار المعرفي من أجل الإجابة عن السؤال التالي: كيف هي حال العائلة بين الأمس واليوم في علاقتها بعاداتها وتقاليدها الموروثة؟

إن الإجابة عن هذا السؤال. قد تختلف من باحث إلى آخر وذلك ووفق المنهج المختار و وفق الهدف و مقصدية السؤال وكذا طبيعة البحث في حد ذاته. لقد ركزت على موضوع العائلة و علاقتها بالعادات والتقاليد وذلك قصد الوقوف على طبيعة العائلة ثقافيا واجتماعيا بين زمني الماضي و الحاضر. لأن العائلة - الأسرة - العربية والمجتمع العربي تمر بتغيرات ذات أهمية بالغة ألفت بظلمها على تركيبته العضوية، ففي الوقت الذي كان مجتمعنا قبل بضع سنوات مجتمعا قرويا محافظا على المبنى الأسري التقليدي، حيث كانت الأسرة النواة التي تدور حولها كل القضايا الحياتية و الاجتماعية، نراه يمر في السنوات الأخيرة في تطور سريع في مجالات ونواحي مختلفة مثل البنية الفردية الأسرية والبنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مما أدى إلى تفتت و إضعاف العلاقات و الروابط بين أبناء الأسرة الواحدة، وهذا بدوره أدى إلى إخلال في توازن داخل الأسرة وخارجها<sup>1</sup>

لقد خلق هذا التغيير على مستوى المسار الاجتماعي و الثقافي للعائلة عدة إشكاليات، لعل أهمها: كيف يمكن للعائلة ذات النمط المحلي أن تعيش حاضرها بعاداتها و تقاليدها الموروثة من الزمن الماضي؟

لقد تفتن علماء الأنثروبولوجيا، و علماء النفس وكذا علماء الاجتماع إلى ذلك الرباط الروحي الذي يربط حركية العائلة بعاداتها و تقاليدها على مر الزمن و الذي قد يشكل المحبب الدائم يعود إليه الفرد عند كل أزمة أو كبوة ليجد فيه الأمن والاطمئنان حماية لذاته و لهويته الثقافية والاجتماعية المعرضة في كثير من الأحيان إلى هزات

<sup>1</sup> د. ابو حميدة مرعي، مريم- قراءة في الواقع التربوي و الثقافي للطفل الفلسطيني -. مجلة -البيادر- منظمة التحرير الفلسطينية -ع.6، 1991-. ص.109.

عنيفة وهجومات تدميرية. فقد كانت فضاءات العادات والتقاليد المادية منها وغير المادية عنوانا و ملجأ تستر فيه شخصية العائلة، كما كانت رمزا للعائلة في خضم المعارك الاجتماعية والثقافية التي تخوضها يوميا أمام الممارسات الجديدة وخاصة منها تلك التي يسودها و يسيرها مبدأ التضاد و التناقض والتدمير.

فبفعل عامل الاتصال و المواصلات و التفتح، فإن العائلة المحلية مرشحة ثقافيا و اجتماعيا للتعامل مع نمطين جديدين للممارسات الثقافية و الاجتماعية الجديدة :

- عادات و تقاليد جديدة تحمل بين طياتها مبدأ الاندماج و المسايرة قد لا تؤثر سلبا على الكيان العائلي المحلي.

- عادات و تقاليد جديدة تحمل بين طياتها مبدأ التضاد و التغيير القوي، قد تؤثر سلبا على سلامة الكيان العائلي المحلي.

... وقد اعتبر علماء الفولكلور أن مقياس حضارة و هوية العائلة هي بمقدار ما تنتجه من عادات و تقاليد خاصة بها من جهة و من جهة أخرى هي بمقدار ما توليه من اهتمام و محافظة على عاداتها و تقاليدها الأصلية و اللصيقة بكيانها الروحي و المادي و مصدر هويتها الثقافية و الحضارية عبر مراحل تاريخها الطويل، لأن العائلة كمجتمع صغير يخضع أفرادها في تفكيرهم و اتجاهات سلوكهم إلى مجموعة من التنظيمات المكتسبة و المعروفة باسم الشرات الإجتماعي أو الثقافة و الحضارة و هي جميع مرادفات لمدلول واحد يشمل ما يوجه الحياة الإنسانية من جوانب مادية و غير مادية، من عادات و تقاليد و قيم و لغة و نظم اجتماعية، إن هذه القوة الاجتماعية في كل مجتمع تختلف عن غيره من المجتمعات بما يميز كل مجتمع و يؤثر في حياة الأفراد و تحيط تفكيرهم و اتجاهاتهم و سلوكهم بإطار عام يتحركون في محيطه و بوحيه<sup>2</sup>.

---

<sup>2</sup> شرابي، هشام.- مقدمات لدراسة المجتمع العربي.- بيروت، المطبعة الأهلية للنشر و التوزيع، 1985.- ص. 20.

كما حددناه سابقا، إن الهدف من هذه الدراسة هو البحث في واقع العائلة بين الحاضر و الماضي على ضوء واقع العادات و التقاليد العائلية المحلية و المعروفة تاريخا و ممارسة. أو بلغة أخرى، هل العائلة المحلية تعيش حاضرها بماضيها؟ كيف؟ و لماذا؟

ليس المهم هنا أن نسرد كل العادات و التقاليد العائلية المحلية لأنها عديدة و متنوعة، تتعدى طاقاتنا وطاقات هذه الأوراق، ولكن لا يسعنا القول أنها مست كل جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية و السياسية والفكرية من شعر، غناء، رقص، لباس، طبخ، أعياد، حفلات، فن، زخرفة، نحت، حرف، أعراف... فهي ممارسات أنتجتها الوجدان الشعبي تلبية لرغباته المعيشة، فظلت حية بحياته، تتحرك بحركاته على مدى تاريخه الثقافي والاجتماعي والسياسي و الاقتصادي المحلي، بكل ما تمتاز به و ما تحمله بين طياتها من عراقة و أصالة وواقعية وجماعية، فهي تتعدى الوظيفة التي أراد أن يلبسها إياها البعض حين حصروا ذكرها

و الحديث عنها إلا في مناسبات الفرحة و التسلية و إبراز ما فيها من طابع العجائبي و الغرائبي. فهي غير ذلك، إنها تترجم نمط تفكير و فلسفة شعبية و تدابير مادية ومعنوية من أجل مجابهة متطلبات الحياة. لقد ظلت العائلة المحلية محافظة على عاداتها و تقاليدها، تحياها وتعيشها بدون هوادة و لا انقطاع... و ما قد يسجل من حين إلى آخر من عادات و تقاليد جديدة في الفضاء المحلي، فإن أغلبها لم يقتحم هذا الفضاء بصمت، فقد صاحب هذا الدخول و هذا الاقتحام صراعات نفسية و اجتماعية و ثقافية عنيفة كاد أن تدمر العائلة وفتت عناصرها إلى درجة التطاحن والعداوة والانقسامات الفكرية و الثقافية و حتى الإيديولوجية، وقد نتج عن هذا التداخل ظهور لدى العائلة المحلية عادات و تقاليد لا هي تقاليد و عادات بالية، و لا هي تقاليد وعادات يعتمد عليها الناس في كل شاردة أو واردة، يتمسك الناس بقسم منها ويتخلون عن

أقسام أخرى، ينسخون نسخا ويجورون بعضها الآخر<sup>3</sup> لعل ما يميز العائلة المحلية أنها عائلة في مرحلة الانتقال من النمط التقليدي أي الخاضع لقواعد و لعلاقات ثقافية و اجتماعية تقليدية إلى نمط عائلي جديد يريد لنفس الحدائة و العصرية فكرا وسلوكا من الناحية الاجتماعية و الثقافية الاقتصادية.

إن هذه النقلة العائلية من نمط آخر لم تكن سالمة ولم تكن بريئة أو مجانية، فقد أصابت الذات العائلية في عمق كيانها وفي جسدها الاجتماعي و الثقافي، حيث زلزلت بنيتها الداخلية وفتت عناصرها منتجة بذلك في كثير من الأحيان صراعات عنيفة بين الفرد و العائلة والمجتمع الأمر الذي أدى في كثير من المواقف والمواقع إلى بروز الظاهرة الازدواجية الثقافية والاجتماعية في بعض الممارسات لدى العائلة الواحدة التي أصابها تمزق وانشقاق بين عادات وتقاليد محلية و عادات وتقاليد دخلية أو جديدة سواء المستحدثة منها محليا أو المستوردة بلغة أهل الاقتصاد.

إن الممارسات اليومية تكتشف بوضوح هذه الازدواجية التي قسمت كيان العائلة الواحدة إلى كيانات مختلفة، حيث أن كل كيان يعمل على إبراز نمطه المفضل متسترا وراء شعارات مختلفة :

فالكيان الأول، يدعي الأصالة و التراث و الهوية والانتماء، وفي اعتقاده لا يتحقق كل ذلك إلا بالتمسك القوي بالعادات والتقاليد الأصلية و المحلية و ممارستها ممارسة حقيقية حسب متطلبات الأحداث لأن العادات و التقاليد والأعراف هي حالات معنوية ذات علاقة روحية عميقة الجذور بنفسيات الناس وقيمهم الثقافية و الاجتماعية. فهي ساكنة في ضمائرهم و منعكسة في أساليب سلوكهم<sup>4</sup> ... فالعادات و التقاليد هي حكمة الشعب و بالتالي ليست إشارة على الماضي و ليست زائرا و افدا من بيئة أخرى: إنها

<sup>3</sup> د. معنوق، فردريك.- التقاليد و العادات الشعبية اللبنانية.- طرابلس، لبنان، مطبعة جروس برس.- ص.5.

<sup>4</sup> العنسي، سعود بن سالم.- العادات العمانية.- مطبعة التراث القومي والثقافة.- ص.11.

تنتمي إلى مجتمع الذي تتفاعل معه ويفيد منها، و إلى اللحظة التي تحقق بها وظيفة حيوية وإنسانية من وظائفها الكثيرة، إنها ليست حلقة من سقط المتاع، و ليست عائقا من عوائق التقدم...<sup>5</sup>.

أما الكيان الثاني، فإنه يدعي العصرية و الحداثة والتجديد، في اعتقاده أن هذه العادات و التقاليد بالية وقديمة، و لم تعد تلي متطلبات العصر الجديد، كما أنها تعرقل نشاط الفرد، وتقف حاجزا أمام كل مبادراتها للإنتلاق نحو آفاق جديد مغاير.

إن هذا الكيان يرى في النمط الجديد نودجه الإيجابي وبالتالي يعمل جاهدا من أجل تنبيه و استراده و العمل على تطبيقه وممارسته على أرض الواقع المحلي. كما يعتبر في رؤيته الفكرية والإبديولوجية أن الحديث عن العادات و التقاليد الأصلية حديث ماضوي، تراثي، سلفوي متحجر...

ومهما يكن من أمر، فلقد ظلت العائلة التلمسانية تعيش وتمارس كثير من عاداتها و تقاليدھا حاضرا كما مارستها وعاشتھا في الماضي، و لم تر فيها أبدا عائق من عوائق التقدم العائلي، بل اعتبرتها رمزا للأصالة وللتمسك ولالإنتماء.

قد لا يتسع هنا المقام لذكر كل العادات و التقاليد العائلية التي ظلت حية و ممارسة في الوقت الحاضر وما يصاحبها من ممارسات و طقوس واعتقادات قد تصل بها أحيانا إلى درجة التقديس، غير أننا سوف نحاول الوقوف على مظهر من مظاهر هذه العادات والتقاليد العائلية والذي استمر حيا منذ القديم حتى الوقت الحاضر الذي زادها قوة و حيوية. وهو مظهر الاحتفالية المرتبطة بالأعياد حيث أن طبائع العائلة التلمسانية ميلها و حبها الشديد للظاهرة الاحتفالية، فهي لا سيما تحتفل بطريقة خاصة بكل الأعياد الدينية و الاجتماعية والعائلية و تحضر لها تحضيرا ماديا ومعنويا، بل تعمل جاهدة على خلق و إبداع أعياد أخرى جديدة و محلية.

---

<sup>5</sup> يونس، عبد الحميد.- دفاع عن الفولكلور.- الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973.- ص.39.

فبالرغم من المشاكل و الصعوبات الاقتصادية و المالية و الاجتماعية، و بالرغم من اقتحام نماذج احتفالية جديدة، فإن العائلة التلمسانية تقدم أعيادها وتصر و تؤكد على ضرورة الاحتفال بها.

إن نظرة سريعة لسجل الأعياد والاحتفالات المحلية التلمسانية يترك المرء يحس بمعنى العيد ومعنى الاحتفالية في الذاكرة الشعبية التي تحتفظ بجغرافية زمانية و ثقافية واجتماعية لكل عيد ولكل حفلة : فمن عيد الفطر - إلى عيد الأضحى ثم باقي الأعياد الأخرى : كيوم عاشوراء - المولد النبوي - الأسبوع - الولادة - الختان أو الطهارة - الخطوبة - الزواج - عيد الميلاد - رأس السنة الميلادية - رأس السنة الهجرية - النايير- الذهاب إلى الحج أو العودة منه - النجاح في الامتحانات - ختم الولد للقرآن - صوم الأطفال لأول مرة - الدخول والتنقل إلى الدار الجديدة - أعياد خاصة بالأولياء...

يعتبر الاحتفال بالأعياد من القيم الثابتة للحياة الاجتماعية المحلية حيث أن "للعيد نكهة خاصة يدعو الناس إلى التوقف عن العمل والقيام بأعمال غير مجدية على الصعيد المادي، العيد يدفع الناس إلى التمتع بالحياة والاحتفال بالعلاقات الاجتماعية خارج إطار العلاقات الاقتصادية، لذلك فالشحنة المعنوية التي يتمتع بها العيد حاجة إنسانية يشعر الناس عفويا بضرورة التمسك بها".

إن ظاهرة الاحتفال بالأعياد و تخليدها، تعد محطة اجتماعية ونفسية و ثقافية ضرورية في حياة العائلة التلمسانية التي تعلن من

<sup>6</sup> معتوق، فردريك : ص 82 .

خلالها انتماءها الديني العقائدي، لأن أغلب هذه الأعياد طبعت العائلة نفسها بطابع ديني مقدس.

إن محافظة العائلة التلمسانية على الظاهرة الاحتفالية بالأعياد ماضيا و حاضرا و الإصرار عليها مرتبطة في أبعادها الاجتماعية والثقافية بمرجعية دينية و ذلك لما يصاحب هذه الممارسة من أعمال خيرية اجتماعية جماعية، فالاحتفالية فرصة للقاء و التقارب و التماسك الاجتماعي من جهة، و من جهة أخرى فرصة لإثبات الذات الجماعية و إثبات الهوية الثقافية.

إن حديثنا عن العائلة و الظاهرة الاحتفالية بالعيد، يتعدى في حقيقة الأمر الجرد الإحصائي لكل الأعياد و ما يصاحب كل عيد من تحضيرات مادية و معنوية كالطبخ الخاص أي كل عيد تخصص له مأكولات و أطباق خاصة، و كذا اللباس التقليدي حيث أنه لكل مناسبة لباس خاص بها.

و كذا الطقوس والمعتقدات ذات الصلة بكل عيد و مناسبة، إن مقصدية حديثنا تريد أن تبحث في ذلك السر الروحي والثقافي و الاجتماعي الذي خلى العائلة تصر و تؤكد على هذه الاحتفالية و هذا التعلق بها على مر السنين و صمودها رغم الصعوبات المادية والمالية من جهة و رغم دخول ممارسات احتفالية جديدة في ثقافتها. لقد ظلت العائلة تمارس احتفالياتها كيفية ماضيها بحاضرها بكل ما يحمله من دلالات دينية و اجتماعية وثقافية و نفسية، لأن العيد يصبح مناسبة اجتماعية و مرآة تنعكس فيها طموحات و آماني المجتمع، يبقى الإعتبار الديني قائما، ولكن هم المختلفين بالعيد



يتبلور حول قضايا اجتماعية وليس حول قضايا روحانية. هنا يصبح لكل عيد معنى اجتماعيا مميزا... وكأني بالأعياد تأتي لتشد أواصر هذه المؤسسة (العائلة)، ففي العيد تجتمع العائلة، تشرب وتأكل، تجمع صغارها بكبارها في إطار بروتوكول معين من الزيارات، و للعيد كذلك معان اجتماعية كتضامن من الجماعة<sup>7</sup>.

و خلاصة القول، إن ما أردنا أن نقوله في هذه المداخلة. و هو أن العائلة المحلية قد تعرضت لتطورات اجتماعية و ثقافية واقتصادية عميقة أكسبتها عادات و تقاليد جديدة مع الزمن الجديد و الطرح السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي الجديد، غير أن هذه التطورات وهذه التغيرات ظلت عاجزة في أن تصيب بعد مظاهر الثقافة المحلية و المتمثلة في بعض العادات و التقاليد اللصيقة للذات المحلية، حيث ظلت العائلة محتفظة ومحافضة عليها معتبرة إياها جزء من كيانها الروحي والعقائدي الأمر الذي أدى بها إلى تقديسها واعتبار عدم الاحتفاء بها أمر سيء ومرفوض اجتماعيا و ثقافيا وحتى عقائديا.

---

<sup>7</sup> م. س. - ص. 93.